لسان الزمان

خواطر حول أزمة الدين

هل بين مبادىء الثقافتين الفرنسية والالمانية تناقض ؟

الدين والدول ولوكارنو

خواطر حول أزمة الرين

هل بين مبادىء الثقافتين الفرنسية والالمانية تناقض ؟

اتجهت انظار العالم ، بعد فوز الهر هتلر ، وتسلمه مقاليد الامور في المانيا وتوحيد ولاياتها وتنظيم جيشها وتسليحه وانكارها لمعاهدة لوكارنو باحتلالها منطقة الرين ، الى ما يكون من أثر ذلك في العلاقات بين المانيا وفرنسا . فقد قرأنا في الاسبوعين الاخيرين ملخص الخطب التي تليت على جانبي الرين ، وتابعنا النزاع الذي دار في مؤتمر دول لوكارنو وفي اجتماع مجلس الامم في لندن ، وكل من يهمه الامر يسأل نفسه ويسأل غيره هل النتيجة المنتظرة سلم او حرب ؟

ان الحالة الراهنة ، بين الامتين ، التي نشأت على أثر توقيع معاهدات الصلح ، وحاولت فرنسا ان تحافظ عليها ، بكل قوتها ، قد تصدى لها الآن من يتحداها بخروج المانيا في جامعة الامم ومؤتمر نزع السلاح وانتزاعها المساواة التي وعدت بها ونقضها للمواد العسكرية التي نصت عليها معاهدة فرساي وانكارها معاهدة لوكارنو على اثر ابرام ميثاق الدفاع بين فرنسا والسوفييت . ولا يمكن ان يقال ان الحالة في الخمس العشرة السنة التي تلت معاهدة فرساي ، كانت حالة سلام . لان السلام ، اذا كان شيئاً ، فهو الرضا والقناعة ، أو على الاقل هو تسليم بالحالة كما هي . وليس من ينكر ، انه لا الرضا ولا القناعة ولا التسليم ، كانت السمة التي اتسمت بها الحالة السياسية بين المانيا وفرنسا ، في العهد الحديث ، أو من جانب المانيا على الاقل

فعلى ضفتي الرين تنابذ دائم ، بين القومين وريبة متبادلة . فالمانيا لم تسلم قط بخذلانها . ولا رضيت عن ثمن الخذلان . انها لم تسلم قط بشروط الصلح ، لانها لم تقبل الاساس الذي بنيت عليه هذه الشروط — وهو الاعتراف بالتبعة في اثارة الحرب الكبرى . انها لم تسلم بأن خذلانها الحربي هو خذلان الثقافة الالمانية ، المتفوقة في نظرها على كل الثقافات

ثم ان فرنسا لم تحسن وضع اساس السلم هي وحليفاتها . خانتها حكمة القوي في ساعة النصر ، وأخذت بثأرها من خذلان ١٨٧٠ ، معيدة في ١٩١٩ نفس الاخطاء التي ارتكبتها المانيا قبل خمسين سنة. خانتها الثقة في قوتها ، فحاولت ان تملك اكثر مما تستطيع . لم تكتف ببنود المعاهدة ولا بجامعة الامم ، ضماناً لها . فسعت الى الحصول على معاهدة مثلثة مع انكلترا واميركا ، لضمان الحالة التي نشأت عن معاهدات الصلح . فلما لم تنجح في هذا المسعى تحالفت مع بولونيا وبلدان الاتحاد الصغير كأنما لم تتعلم دروس التاريخ وعبره ، وهي القاضية ، بان الصداقة مع الجار ، أفضل من الصداقة مع جار الجار والعداوة مع الجار : إذ لا بد ان يشعر المتوسط من الثلاثة بشيء كثير من القلق ، وهو يرى جاريه عن جانبيه متفقين عليه

أدرك بريان هذا الخطر، وموضع الضعف في هذا المنطق الفرنسي، لأنه كان أقوى خيالاً وأنفذ بصيرة من معظم مواطنيه، فحاول أن يصلح من أخطاء فرساي، بالتقريب بين فرنسا والمانيا في معاهدات لوكارنو. ومع ذلك لم يفز بريان بكل ما يتمنى. ان ذكريات الجوع في المانيا، وتبديد الثروة، واحتلال الرور، وفداحة التعويضات، وإحاطة المانيا بحلفاء فرنسا، والتردد في التسليم لالمانيا بكل ما كان العقل يقضي بالتسليم به، وعدم الاعتراف لها اعترافاً رسمياً بمساواتها للدول الكبرى في التسليح، كل هذه العوامل هدمت روح الثقة والتعاون بين الامتين على ضفتي الرين، التي حاول بريان ان يخلقها

فخاب كل سعي، للتقريب بين الثقافتين — ثقافة المانيا وثقافة فرنسا — وحمل أصحاب كل منهما على النظر الى الاخرى نظرة احترام وصداقة. خاب كل سعي من هذا القبيل، لعزم الظافر وإصراره على الاحتفاظ بالتفوق والسيطرة اللذين فاز بهما سنة ١٩١٨، للمرة الاولى في خلال قرن من الزمان

وقد وجد الآن، من يتحدى، الذين يحاولون الاحتفاظ بهذه السيطرة — أي ان روح النازي تتحدى الحالة التي انشأتها معاهدات الصلح بين فرنسا والمانيا. ففي المانيا جيل جديد، لم يعرف مرارة الخذلان ولا يسلم بنتائجه. فهو يتحدى بصوت عالٍ، يصحبه نفخ الابواق وقرع الطبول العسكرية، حق ثقافة أخرى أو حضارة غربية، في السيطرة على السلالة التوتونية

***

إن محب السلام قد يتألم لظهور النزعة الالمانية الجديدة بهذا المظهر المتحدي. وقد يدافع عن حرمة المعاهدات، ويأسف للاسلوب الذي يجري عليه الريخ الثالث في تحقيق اغراضه. ولكن لا سبيل الى الفرار من مواجهة الحقائق: فبزعامة هذا الرجل الزعيم، نشأت أمة المانية جديدة، فيها اخطاء المانيا القديمة أو على الاقل مظاهر أخطائها، وفيها اخطاء جديدة، وروح هذه الامة المخلوقة خلقاً جديداً تتحدى النظام الراهن!

فأوروبا تواجه الآن، ما كان أوفر العوامل سبباً في نشوب حروبها — تزيد مفاخرة أمة من الامم بثقافتها مفاخرة تدعوها قومية. فليس ثمة فرنسي لا يؤمن بتفوق الثقافة الفرنسية على ثقافة الشعوب التوتونية. وإذا كان إيمانه لا يتخذ شكلاً من التحدي الحربي فلأنه يشعر أن هذا التفوق معترف به. وليس ثمة نازي الماني، لا يشترك مع الفيلسوف الالماني فيخت في القول بأن الشعوب الالمانية، هم كهنة الثقافة، وحملة المصابيح الى سائر الامم

كانت المانيا قبل الحرب تسعى الى السيطرة المالية، وكانت تطلب السيطرة لنشر الثقافة الالمانية أو التوتونية في أرجاء العالم، وإنما كان يحدوها شيء من المرارة، لأن مقام الثقافة الالمانية لم

يكن معترفاً به ، فأرادت الحصول على هذا الاعتراف بحد السيف وهذا هو الباعث على ظهور الالمان بمظهر المتغطرس قبل سنة ١٩١٤ وقد دعوا هذا النوع من « الكفاح الثقافي » Kulturkampf

ثم جاء الخذلان في الحرب . ولو انه كان خذلاناً حربيّاً لسلم به الالمان . ولكن الطريقة التي أساء بها المنتصرون استعمال هذا الخذلان الحربي ، احفظ قلوب الالمان ، وجعل المانيا اليوم كما كانت سنة ١٩١٤ ، واملأ روحها اليوم أشد مرارة من روحها سنة ١٩١٤ . فالمانيا النازية في نظر الفرنسيين ، ليست الا نسخة من المانيا سنة ١٩١٤ ، ان المانيا اليوم ، بما ذاقته من ضروب المحن والحرمان ومرارة الاستعباد الدولي كالاسد الثائر يحاول ان يحطم قضبان القفص الذي يحويه

ولو ان فرنسا عرفت ، كيف تحتفظ باحترام عدوتها المغلوبة ، لامكن تفادي معظم ما وقع ومعظم ما ينتظر أن يقع ، ولا يبعد ان المانيا كانت حينئذٍ اتخذت من فرنسا الموقف الذي اتخذته فرنسا من انكلترا في المائة السنة الاخيرة أو تزيد — وهو موقف احترام واحتمال متبادل . وفي علاقة بريطانيا بفرنسا عبرة من عبر التاريخ ، لا ندري كيف يهملها رجال السياسة . ففي خلال الف سنة قبل القرن التاسع عشر او حتى منتصفه ، كانت فرنسا وبريطانيا أشد الامم عداوة . فلم ينقض قرن واحد لم تنشب بينهما حرب ، او لم تخوضا حرباً في الصفين المتقابلين ، وظن أن هذه العداوة سوف تكون دائمة بينهما ، ولكن مضت الآن ١٢٢ سنة على معركة واترلو والسلام مخيم على العلاقات بين الامتين . فلا يخطر ببال انكليزي من ناحية ، ولا ببال فرنسي من ناحية أخرى ان حرباً بين الامتين ممكنة أو محتملة ، لانهما قد تعلمتا ان تعيشا معاً ، فكل منهما تحترم الاخرى وأوضاعها وتقدر ثقافتها من دون أن يمر في خاطرها ظل من الرغبة في السيطرة عليها وإخضاعها . ذلك أن بريطانيا لم تسيء استعمال النصر الذي نالته في واترلو على نابليون ، فلم تترك لفرنسا عذراً تتوسل به إلى تغيير الحالة التي نشأت عن الانكسار في تلك المعركة . ثم أن رجالها حكموا العقول في الروابط الجغرافية والاقتصادية التي تقتضي منهما التعاون بدلاً من التنابذ

***

في اللغات الفرنجية مثل يقول « لا تبك على اللبن المدلوق » وليس غرضنا هنا ابداء الاسف فقط على ما وقع حتى الآن ، وانما غرضنا ان نبين لمن يريد ، منشأ الحالة كما هي اليوم من ناحيتها الروحية . ومن أشق الامور على الكاتب ، تعيين اللوم ، أو توزيعه ، ولكن لا ريب في أن بريطانيا وأمريكا تحملان نصيباً من التبعة في خلق هذه الحالة لانهما لم تريا الخطر الناشيء من ترك فرنسا والمانيا وجهاً لوجه وكل منهما متمسكة بكبريائها الثقافية . كان لا بدّ من ان تتولى امة من الامم الراجحة في الدفاع عن مبدأ جديد في الشؤون الدولية — هذا المبدأ هو أن ثروة

العالم الروحية تتبدد اذا بلغ النزاع بين نوعين من الحضارة او اسلوبين من الثقافة ، درجة الغليان والحرب ، وانها — اي الثروة الروحية — تنمو وتزداد ، بالتعاون الحر ، القائم على الاحترام والتقدير

هذا المبدأ كان يجب ان يكون مبدأ جمعية الامم في جنيف . ولكنهُ لم يكن مبدأها إلاّ في عالم الوهم والنظر . جنيف في نظر فريق من الامم الاوربية ، ليست إلاّ سبيلاً للاحتفاظ بالسيطرة التي منحتهُ إياها معاهدات السلام . وفي نظر فريق آخر هي السبيل الى التحرر من قيود هذه المعاهدات . فأخفقت جنيف في تحقيق كلتا الطريقتين . وأصبح منبر جمعية الامم ككل المنابر الديمقراطية مجالاً للمساومة على المبادىء ، وميداناً للاستعارات الكلامية المخيفة واضحى التقدم في معالجة شؤون العالم تقدماً بطيئاً جداً ، يفقده البطء كل قيمة وكل اثر طيب

فبدلاً من ان تصبح دار جمعية الامم ، ملتقى لمثلي الحضارات والثقافات المختلفة يجتمعون فيها على صعيد واحد من الرغبة في بث روح التعاون والتسامح ، أصبحت ميداناً للمنافسة بين العناصر المختلفة ، فاتسعت الهوة التي تفصل بين الحضارات والثقافات والفلسفات التي تقدسها الامم المختلفة ، وتسير بهديها ، فانها من البدء كانت متجهة الى جني الفائدة الخاصة اكثر من اتجاهها الى التفاهم ، والى الاحتفاظ بالماضي بدلاً من السير في سبل جديدة الى الأمام

قد يشذ عن ذلك بريان وشترزمان وهريو ومكدونلد ، ولكن الروح الغالبة هي الروح التي تقدم ذكرها . وهذه الروح وجدت الآن من يتصدى لها ويتحداها في شخص هتلر وجنوده والمانيا الجديدة التي خلقها

في النزاع المحتدم بين الثقافتين — الذي اشرنا اليه في مقالنا هذا — يظهر احياناً رجال من اقطاب الفرنسيين ينفذون ببصيرتهم الى سر النزاع ويحاولون ازالته . فبريان قال بعد اجتماعات لوكارنو التي اقتربت فيها المانيا من فرنسا اقتراب تفاهم حقيقي — « لقد تكلمنا لغة اوربية وهي لغة جديدة يجب ان نتعلمها » . وكذلك قال لمستشار الماني — : « أنت الماني وأنا فرنسي . وعلى ذلك فلا بد من اختلافنا . ولكنني استطيع ان اكون فرنسياً وأوربياً محباً لصالح اوربا في آن واحد . وأنت تستطيع ان تكون المانياً وأوربياً محباً لصالح اوربا في آن واحد . ولا يصعب على اوربيين يحبان صالح اوربا أن يتفقا »

وممن طبع على غرار بريان المسيو هريو . فقد قال في خطبة في سبتمبر سنة ١٩٣٢ : « لا بد أن يكون في حيز المستطاع وضع عهد لضمان السلامة تشترك فيه كل الامم الاوربية ويضمن لالمانيا الطمأنينة الدائمة »

***

ولعلَّ قول هريو هذا هو ابعد ما قدمه الفرنسيون لالمانيا ، من ناحية السياسة العملية .

ولكنه لا يكفي المانيا . فالمانيا لا تطلب الطمأنينة فقط ، لان الطمأنينة قد تكون هدف امة مستقرة على نظام وعقيدة . ولكن الطمأنينة لا مكان لها في فلسفة ديناميّة كالفلسفة الالمانية . وقد أشار الى ذلك المسيو ده جوفنل في كتابه « السلام الفرنسي » اذ قال « كل خطة سياسية بين فرنسا وألمانيا لا تنظر بعين العناية الى الفرق الكبير بين « المنطق الفرنسي » و « الديناميّة الالمانية » لا بدّ ان تمنى بالخيبة عاجلاً او آجلاً »

وفي هذا التفريق سر النزاع . ففرنسا لم تفهم قط « الديناميّة الالمانية » . لانها كانت دائماً تخافها وتخشاها ، مع انه ليس من المعقول ، ان يظن احد ان انخذال المانيا في سنة ١٩١٨ وانشاء الجمهورية الالمانية ، يمكن ان يتخذ دليلاً على تخلي المانيا عن فلسفتها الراسخة في تاريخها .

قال اديب المانيا العظيم جوته : « في البدء كانت « الكلمة » . انني لا استطيع ان أعين قدر الكلمة او معناها . في البدء كان الذكاء . هل ابدع الذكاء كل شيء ؟ بل يجب ان نقول في البدء كانت القوة ؟ كلاّ بل أقول بثقة ، في البدء كان العمل » . فهتلر يقدس « العمل » . أما في فرنسا فيتابع زعماء الاحزاب واقطاب السياسة وجمهم يقدسون الذكاء والمنطق في الغالب . وهذا هو الفرق الاساسي بين نفسية الشعبين ، الفرق الذي ينشىء ريبة احدهما بالآخر . وقد يدفعهما ثانية الى الالتجاء الى الحجة الاخيرة — حجة القوة والسلاح

***

ولعلّ الخطر اعظم مما تصوره في هذا العصر عصر الجمهور — سواء كان هذا الجمهور جنود النازي في المانيا ومن ورائهم الشعب الالماني تسيّره وزارة الدكتور جوبلز ، أو الرأي العام الفرنسي الذي تسيطر عليه الصحف الفرنسية وتستهويه . وليس ثمة ما يقنعنا الآن بأن الديمقراطيات أقل استعداداً للحرب من « الملكيات » و « الارستقراطيات »

بل ان « الملكية » في المانيا القيصرية كانت ضمانة ضد التهور النفسي الذي يندفع اليه الشعب . كان زعماؤها أكثر وقوفاً على حقائق الحال مما يمكن أن يتاح لجمهور يحصى بالملايين . وكانوا أشد اهتماماً بأعمالهم وفزعاً على مقامهم ، لذلك كانوا أقل اندفاعاً الى المغامرات الخطرة ، من الامبراطورية التي قد تشب عن الطوق ، ويصبح من المتعذر كبح جماحها

ولكن المانيا دولة مندمجة الآن ، لا جمهورية هي ولا ملكية ، وقد انقلب الشعب الالماني انقلاباً تاماً بعد ما وضعت الحرب اوزارها . فالعناصر المتحدة المعتدلة التي تقلدت زمام الامور في جمهورية ڤيمار ، قد فقدت ما لها من السلطان وتنحّت عن الزعامة لأتباع « فلسفة العمل » مبدأ الفلسفة الديناميّة الالمانية ، وليس للحركة التي تدعمها قوة النازي « فردية » يمكن

استعدادها لتخفيف السير ودرء الخطر عند الاضطرار. فقد اكتسحت كل الفواصل بين الولايات الالمانية وأنشأتها على المثال الالماني الاعلى. وحدة متماسكة

وهذا كله أهم من الاتحاد الجركي بين المانيا والنمسا الذي قاومته فرنسا حتى خنقته في المهد

***

نظرنا حتى الآن الى مسألة السلم والحرب بين فرنسا والمانيا من ناحية النزاع بين السلالتين والاختلاف بين روحي ثقافتهما. ولا ريب في ان الفرنسي إذ يلقي بنظره الى ضفة الرين الاخرى ويرى هذه القومية الجامحة الجتاحة، يشعر اذا داخله الريب في ما قد يسفر عنه المستقبل. ولكن الفرنسي يجب ان يعترف بأنه أخفق في محاولته السيطرة على الروح الالمانية، سواء بالقوة حاول ذلك أو بالدبلوماسية. وكل ما فعله هو ومن يحمل معه تبعة هذا العمل، تقوية الروح الالمانية المطالبة بالمساواة

ولكن ثمة سبب آخر للحرب، شديد الخطر وهو لاتصاله بتفاقم الازمة الاقتصادية قريب من الوتر الحساس في الشعوب المهتاجة المحتاجة أشد القرب، فقد خلقت دول جديدة في أوربا بمقتضى معاهدات الصلح، يبلغ طول حدودها نحو خمسة آلاف ميل. ولو ان هذه الحدود كانت حدوداً جغرافية أو عنصرية فقط لكان الامر هيناً ولكن ما كادت هذه الحدود ترسم على الورق حتى اصبحت حدوداً اقتصادية فأضيف الى النزاع العنصري النزاع الاقتصادي، فشرعت في الحال كل دولة جديدة تحاول ان تكتفي ذاتها بذاتها من الوجهة الاقتصادية، فرفعت الحواجز لتمنع بضائع جاراتها من ان تنفذ اليها، فمنعت كذلك الافكار والاذهان من التبادل والتفاهم. فصح المثل القائل « زاد الطين بلة »

وهذا العمل، في نظر المانيا — البلاد الصناعية التي تعيش ببيع مصنوعاتها — كان باعثاً على خرابها الاقتصادي وخاصة بعد نزع مستعمراتها منها وقد أشار الى ذلك كاتب الماني كبير فقال « لو عزز روح الاشتراك والتعاون من الناحية الاقتصادية لتقضي على بذرة البغض قبل ان تنبت، وتقتل فكرة الحرب في مهدها ». فلما حاولت المانيا ان تفك قليلاً من هذا القيد، بانشاء الاتحاد الجركي مع النمسا، تصدت لها فرنسا ومنعتها

***

فماذا تستطيعه فرنسا في هذه الحال؟ لا بد لها من ان تنظر الى عاملين خطيرين: فثمة أولاً احزاب اليسار من متطرفين واشتراكيين. وهي الاحزاب التي تؤيد الحكومة الحالية وتمثل في الغالب الرأي السائد لاكثرية الشعب الفرنسي. ولكن احزاب اليسار لم تستطع حتى

الآن ان تحقق خططها السياسية في فرنسا . نعم ان بين زعمائها رجالاً واسعي الثقافة كرام المبادئ، احرار الفكر يستطيعون ان يخطبوا خطباً بليغة في «نزع السلاح الادبي» و «التعاون الدولي» ولكنهم في الغالب لا يستطيعون ان يتحرروا في شؤون السياسة الخارجية من القواعد التقليدية . حتى بريان نفسه على عظمته في هذا الميدان ، لم يتحرر في عهده كل التحرر منها . اما هريو فأبدى فهماً عميقاً للحال وجرأة عظيمة في مؤتمر لوزان الذي الغيت فيه التعويضات ، لكن حكومة المستر هوفر خذلته ، لانها بعد ما اشارت بما تم في لوزان ، لم ترض ان تخفض ديون الحرب، لقاء الغاء التعويضات . ولذلك تنتظر النتائج التي تسفر عنها الانتخابات الفرنسية العامة في مايو القادم بفارغ صبر

***

على ان للمسألة ناحية اخرى .فنحن اذ نأخذ على فرنسا تشددها في المحافظة على المعاهدات القائمة ، وامتعاضها من ملاينة انكلترا لالمانيا ، ونحملها جانباً كبيراً من تبعة الخيبة في انصاف المانيا والتعاون معها بعدم انصافها ، ننسى شيئين :

ننسى اولاً ان الانكليزيَّ — حتى السنة الاخيرة — والاميركيَّ ، لا يدركان معنى تنظيم السلامة او ضمانها كما يفهمها الفرنسي . فانكلترا جزيرة او جزر يحيط بها الاسطول . واميركا بلاد شاسعة واقعة بين عيطين . ولو كانت المكسيك بلاداً يقطنها مائة مليون ياباني ، لفهم الاميركي معنى ضمان السلامة على نحو ما يفهمهُ الفرنسي . والسياسة ترجع في الغالب الى الحقائق الجغرافية والتاريخية فعبارتا ضمان السلامة « وتنظيم السلام» كما تردان في خطب الفرنسيين ليستا بالعبارتين الجوفاوين

ثم اننا ننسى كل ما سلمت به فرنسا من اقتراح البروتوكول المشهور سنة ١٩٢٤ الى الاتفاق على خروج الجنود المحتلة للمنطقة الثالثة من بلاد الرين خمس سنوات قبل الميعاد المضروب في المعاهدات، الى قبولها الموراتوريوم الخاص بديون الحرب سنة ١٩٣١ بعد اعتراض شكلي، الى تسليمها في مؤتمر لوزان سنة ١٩٣٢ بالغاء التعويضات الالمانية ، عدا مبلغاً صغيراً لا يزيد على ١٥٠ مليوناً من الجنيهات

فهذه كلها اعمال خطيرة ، ولكن فهم الفرنسي لمعنى ضمان السلامة كان يحول دون التسليم بجميع هذه الامور تسليماً بجمة السخاء والعطف ، بل كان تسليمهُ في الغالب ينتزع انتزاعاً منهُ حتى افضى تبرم الالمان بذلك الى نشاط الحركة الوطنية الاشتراكية واستفحالها فاصبح الخطر الذي يتصوره الفرنسي شبحاً ماثلاً امامهُ